مبارك وساط

أنطولوجيا شخصِيّة

(مختارات من قصائد م. وساط)

– 2020 -

منشورات حِبر

مبارك وساط

أنطولوجيا شَخصِيَّة

(مختارات من شِعر مبارك وساط)

2020

منشورات

حِبْر

جميع الحقوق محفوظة

نبذة عن مبارك وساط:

- وُلِد ببلدة مزيندة - عمالة اليوسفية - في 16-10-1955.
- دَرَّسَ الفلسفة حتّى أواسط سنة 2005.
- وهو شاعر ومترجم. في مجال الشِّعر، صدرتْ له المجموعات التّالية:

- على دَرج المياه العميقة:

طبعة أولى: دار توبقال، 1990 - طبعة ثانية: منشورات عُكاظ - طبعة ثالثة، رقميّة، منشورات حِبر، 2020.

- محفوفاً بأرخبيلات...

طبعة أُولى: منشورات عكاظ، 2001 - طبعة ثانية: رقميّة، عن: منشورات حِبْر، 2020.

- راية الهواء

طبعة أولى، منشورات عُكاظ، 2001 - طبعة ثانية، رقميّة، عن: منشورات حِبْر، 2020.

- فراشة من هيدروجين

طبعة أولى: دار النّهضة العربيّة، 2008 - طبعة ثانية، رقميّة، عن: منشورات حِبر، 2020.

رجلٌ يبتسم للعصافير

طبعة أولى عن منشورات الجمل، 2011 - طبعة ثانية، رقميّة، عن: منشورات حِبْر، 2020.

عيون طالما سافرتْ

طبعة أولى عن منشورات بيت الشِّعر في المغرب، 2017.

وقدْ تُرْجِم عدد من قصائد وساط إلى بعض اللغات الأجنبيّة. كما حصل على جائزة سركون بولص للشِّعر وترجمة الشِّعر في دَورتها الأولى، سنة 2018.

****

وهو مترجم أيْضاً، ومن ترجماته التي صدرتْ في كتب:

شذراتٌ من سِفْر تكوين منسيّ

لعبد اللطيف اللعبي (منشورات الموجة، 2004)

نادجا

لأندري بريتون (منشورات الجَمل، 2012)

التّحَوّل

لفرانتس كافكا (منشورات الجمل، 2014)

الأبديّة تبحثُ عن ساعة يَد

لأندري بريتون (منشورات الجمل، 2018).

****

تتضمن هذه الأنطولوجيا مختارات من مجموعات مبارك وساط السّت المذكورة أعلاه، وقصائد له لمْ تُنشَرْ بعدُ في مجموعة.

مُختارات من:

على دَرَج المياه العميقة

على رصيف مقهى

لا أحدَ من بينهمْ كان في حاجةٍ إلى الألم.

أهازيجُ غامضة تتردّد في حَناياهم، فيما تهبُّ أنفاس متقطِّعة من ناحيـةِ التِّلال. عصـافيرُ شـاردة تَـسـقط بين الفينـة والأخـرى في عُبِّ المـرأة ذات الوجه المُطرَّز بالثُّقوب. والعُيوم الورديَّـة الثلاث، والتي هي قواربُ مُتْرَعـةٌ بِنُخاع الكواكب، يَدفعها النَّسيم نحوَ شطآنٍ آهلةٍ بالأجنّة. الجنـديُّ الوافـد عبر مفاوز موحِشة، يُـطارد في المرآة كلباً أَجْرب. أحـدُهم يُحـاول أن يقـولَ شـيئا من دون أن يحـرِّك شـفتيه. أحـدهم يتحسَّـسُ عظامـاً تتفتَّت في جيبـه. صـبيٌّ مجنَّح يتوقَّف قليلاً عنـد كـلِّ منضـدة خلفهـا رجـلٌ جـريح. ثم يُـفـرد أصـابعه المخمليّـة قبـل أن يختفي في الضَّـباب الكـثيف. والأعمى، النّائي عن الآخرين، يَغوص في مياه وَحشته، أهدابُه مُسْبلةٌ على صرخات وبروق...

لا أحد من بينهم كان في حاجة إلى الألم.

خيمةُ الغبار

مِن جديد، بدأَتِ القوارب الكاسرة تَخيط بمِسلّاتِها الذّهبيّة أفواهَ الأنهار، بينما الخريف يَنسج علاماتِ استفهام على وجوه العابرين! نبوءاتٌ وخِيمةٌ أستشفُّها في عيني يمامةٍ تُحتضر، وأخبارٌ غامضة تبثُّها إذاعة الزَّبَد عن مصيري الأكثر غموضاً. أحياناً، أُقيم مع سَدنة العُشب في ظلِّ أساطيرَ سامقة، بينما تتوغَّلُ أنفاسي في فَجوة الجبل العميقة، أو أمضي إلى كهفٍ بعيد، أرى فيه العلماءَ المُقْعَدين يَفكُّون ألغازَ سَيْر الحقول. كنتُ، أيضاً، أُجالسُ صديقي الذي يشتغل بمنجم الدُّموع السَّوداء، لنستغربَ قليلاً من طُفولة النَّيازك وبُكاء الحجر اليتيم. لكنَّ القنَّاصين الدُّهاة كمنُوا له ذات مساءٍ في خَيمة الغبار. ومُذَّاكَ، صرتُ أتطلَّع إلى كلِّ هَيْكلٍ عَظمِيٍّ يُدندن في حانة، وكلِّ ميِّتٍ يُحمحم تحت نافذتي، إلى أن نسيتُ ملامحَه كلِّية. بقيتْ دماءُ السَّنَاجب تَزورني.

وساعي بريد المَـرارة، الذي كان يحملُ لي رسائلَ على هيئة سلاسل، وبطاقاتِ بريدٍ تسعُلُ فيها الغربان... وَطلع حرّاثو الأمواج الخِصبة، من أكواخهم في عُمق المحيط، ليقوموا بمسيرة احتجاج من ساحة الألم العظيم حتى مَقرِّ إقامة العَظْم المتلألئ. جاء الرُّعاة العميان أيضاً. وحُروف الجرّ المعذّبة. جاء حرّاس قوس قُزَحٍ وأناسٌ وغلاييُن سُودٌ كأنَّها من شُيوخِ بني حام... ومضتِ الحشود على ضِفَّة النّار، ضاربةً في أرض الوحشة الزَّرقاء.. في ذلك الوقت، كانت الأزقة الخلفيَّة تتلوّى على أعناقِ الذِّئاب، والمطرُ، مُشعَّثاً، يتقافزُ على إيقاع قَرْعِ الطُّبول.

تفاصيـل الدَّهشـة

الأنوارُ شاحبةٌ على سيقان الليلك

الخُطى مُحطَّمة على بلاط الشوارع

الأمواج ساكنةٌ في جنبات الحدائق

لا شيء تغيَّر

بعد أن هجرتِ هذه النَّافذة

حيثُ يضحكُ العصفور

هذه الغرفة حيثُ نظرَتُك ورنينُ أساورك

شالُك، وآهاتُك التي من بَنفسَج

ما تزالُ منثورةً على الشّراشف

المكتظّة بأنفاسِك

وفوقَ المنضدة المبقّعة بالحِبر

حيث يُقهقه بوقاحة

تِمثال بوذا المترهّل

للأسفِ لم أستطع أنْ أبدوَ يائساً

مثل نَشيدٍ ناضب مثل جدولٍ هرم

لأنَّ تفاصيلَ الدّهشة تمَّتْ خارج حياتي

لأنَّ أنْفاسي تتلعثمُ في العراء

فيما الثّلج يتساقطُ من سَقف الغرفة

ويلعب في حضني كطفل

لا شيء تغيّر

هيْنَمة الوزّال تَسري في المروج البعيدة

والسَّماء تنثُّ رذاذ الهذيان

وأنت تتخلَّصين من دمك وتَجرين

بين أشجار الصّنوبر المريضة

وعلى الأرصفة التي تَغصّ

بعذاب الموسيقى.

كان قوسُ قُزح يتزحلقُ على كَشْح هَضيم

والزَّبَدُ يكرّر أحلامَ المحيط

كانت أحلامكِ تتبعك

وأنت تتلذَّذين بالهمس وبالكلام

وفي منتصف العبارة تختفين

تاركةً طيفَك في المرآة

تاركةً هُمومَك الصَّغيرة على عتبة الباب

وجهَك في بدايات النّهار

وثوانيَك الزَّرقاء

في قلب السّاعة الذهبي.

لا شيء تغيَّر

رعشتُكِ تنسرب في خروم الدَّنتيلا

خوفُك ينسدل على جبيني

وأنا أبتكرُ سيرةً لوردٍ عابر

قبل أن أضعَ يدي على مفتاح العلاقة

ورأسي خارج رواق البهجة

قبل أن أَغمس عينيّ في لُعابِ الوسادة

المُرصَّعة بنومك وعِطرك

وأُنصتَ لطحالب المُستنقعات

وهي تنمو بين ضلوعي

في هذه الغرفة الكئيبة

كابتسامة القتيل

حيث الوقتُ دائماً

منتصفُ الليل

أماكن

في شارعٍ جانبيّ

وجهٌ أليف

يتكاثر في انتظاري

في ضاحية قريبة

قبيلةٌ تُقيم

طقوسَ نَدمها

في ميدان المعركة

سقط ضحايا كثيرون

تحتَ حوافر الأصيل

في ذاكرتي

مدنٌ تَهمي عليها

أمطار وأحزان

في غابةٍ ما

امرأةٌ تقبِّل ذئباً كسيحاً

على رصيف مقهى

قَمرٌ ينزف

في سُرَّة ميت

على عتبة غابة

هياكلُ عظميَّة

تَضحك للنُّجوم

في كوخ مهجور

أنام

متستِّراً

على صيحتي.

شُـرفـة

رنينُ عضلات الليل المعدنيّة، ضجيجُ النّهارات المُتقيِّحة، رصاصاتُ الليل والنّهار الطائشة، الرَّماد: ذاك ما تعرفه أيضاً أفواهُنا. من هذه النُّقطة انطلقتُ. وها هي تتدحرج الآن نحو النُّقطة المجاورة، حيثُ جلس رجلٌ بهيئة شدّاذ. أطلق وابلاً من الشَّتائم، قاصداً لا أحدَ، رُبَّما. شرب نشيداً من الدُّموع في أقداحٍ مَكسورة. بَكى تحت شُرفةٍ تَأوي إليها امرأةٌ كانت حبيبتي. رَقَص على الجَمر، وعلى نغمات النّاي وهي من شرفتها، ترعى قافلة التنهُّدات التي تحُجُّ إلى مَهبلها، وتمندني عند اليقظة كأسَ نبيذٍ وعُشبَ الأعماق... إنَّها تُكرّر: "كتيبةُ جراح تُدندن في ساحات قلبي."...

"على الشِّفاهِ أيضاً، تتفتَّح وُرود الدَّم في الفَجر..."، تَهذي جُمجمةٌ في إحدى الحانات، فيما تُصْدر المومياءُ أوامرَ للقناني الفارغة بالتَّسكُّع في المزابل. حتّى إشعارٍ آخر، يبقى كلُّ شيء هادئاً.

مـُراودة

اِفتحي فمك قليلاً

وَلْتُوقِظْ أنفاسُكِ عينيّ

من سُباتٍ

أمنحه لطائر

ها أنذا أفتح ذراعيّ الآن

لأمنحَكِ نبْضَ الماء الحيّ

ظلُّكِ يجوب ضفافاً بعيدة

وظلّي الذي يَتبعه

سقط مُهشَّماً

على إفريز الصَّباح

لكنَّ نيراني دائماً تدعوك

عليكِ بتلمُّس الجَمرة.

حرائق

كَمْ جَهَدنا لنرسمَ البسماتِ على شفاهنا الكئيبة، وحاولنا أن نُنصت للضَّجة الخافتة في قعر الجرار، لأجنحةٍ تنتفض في كوابيسنا، وكثيراً ما جلسنا بين الخرائب، في الأماسي المنخورة بالحكايات الطّائشة، عيونُنا تترصَّد خُطى السَّاعات، وفي أفواهنا تنمو أغصان الليل المُتقيّحة.

كم شُدِهْنا ونحن نسمع المياهَ تُدمدم، ونرى أقماراً معتوهة تسقط في أُحبولة الألم، والعانسَ التي تنسج الرَّايات، والرُّعاة إذ ينطفئُون كشموعٍ في البرد.

كم ذَرفنا من دموعنا الخضراء، ونحن نسمع تلك الطفلة المشنوقة بحبال الأفق تُكرِّر كلَّ ليلة: "جميل من الثُّجوم أن تكشف عن أسنانها الذَّهبية لعيون المسهَّدين. جميل من الثّلوج أن تقضي وقتها في أكفانِ صَمتها. جميلٌ من الفلوات أن تُلقِم أثداءها للمرضى اللامرئيين...."

أحيانا، ننسى كلَّ هذا. نجلب الحشائش وننثرُها على الأرائك. بإبَر الضَّوء نَخِزُ جِلد الغسق. نضع الكؤوس في الزّوايا. نُعَلِّق الكراسيّ إلى السَّقف. نُوَقِّع خُطانا على شطحات نهرٍ مجنون. ثمَّ نَستكين، في انْتظار الحرائق الموعودة عند الفجر.

خلف نافذتي...

خَلف نافذتي المرصَّعة بالبروق

تقصفُ أجنحةُ الفجر

نُجيماتٍ وليدة

في الحُقول المُنهَكة

حيثُ تتناجى بُقَعُ دَمٍ وأزْهار

يرسم بحَّارٌ مسلوخ

أشرعةً ومجاذيفَ

على صفحة جِلْده المتهدِّل

ويُحَدِّق عرَّاف بعينيه الزّجاجيتين

في غُضون إلهٍ مُحنَّط

بينما يتدلَّى جنديٌّ

باسماً

من المشنقة

أولئك أَسْلافي

وما عادوا يتعرَّفون عليَّ

لقد قَصُرَتْ قامتي حقّاً

بسببِ الصّباحات الشّاحبة

التي تضغط على كاهِلِي

عند اليقظة

لستُ متوجِّساً من هذا

فما دام قلبُ المرآة ينبض

ثمَّة أملٌ كبير

في انبعاث الشِّفاه من رمادها

إذَّاكَ ستينَع القبل

وتستمتع عظام الموتى

بغناء النَّمل...

أتنصَّت لأشْجان موجةٍ يتيمة

بعد قليل أخرج للتّجوال

سيكون لركبتيَّ شكلُ شعلة

أنا لا يُرعبني لُعابُ الفوانيس

ولا سُعال الذِّئاب

خلف الواجهات الأنيقة

لكنْ أَخْبِروني

لماذا يتدثَّر المرضَى

بمعزُوفة الرِّيح

وأين هي سُرَّة الصَّحراء

الحنجرة تنتظر

لحظةَ نُضوج الصَّرخة

الجرادة تتأوَّه

على قِمّة المدخنة

هنالك مفاجآت كثيرة

في جنبات المدينة :

لقد شُرِع في صَلب النّادل

أمام المقهى

لقد تساقط ريشُ سنونو

على كتفيَّ الحالمتين

أنا رأيت ممرِّضِين عُراة

يُجلَدون داخل كهف

ومساءً يُوضَع

في تابوتٍ من غبار

وزوجين سعيدين حقّاً

لهما ذرِّية من فلّين

وها أنتِ يا ذكرياتي

تتزحلقين

على ثلوجٍ

من حَرير

عصافيرُ سكْرى

ثمّة حانةٌ أُنادم فيها أشكالاً هُلاميَّة، تَرْقبنا عيونٌ لموتَى، وهي لا تـزال تنبِض، منسـيَّةً في الكـؤوس وعلى المناضـد. زفـيرُ السَّـاعات يَنْكـأُ جـراحَ حكايـات غامضـة، بينمـا تبحث قطـرةُ خمـر وحيـدة عن معنىً للحيـاة داخـل حنجرة سكِّير الجنود الذين حـاربوا في السَّـراديب وعلى أرصـفةِ المقـاهي يُصَـوِّبون بنـادقَـهم إلى قلب تمثـالٍ يـترنَّح مُعربـداً. والطِّفلـةُ الـتي تَهْجع منذ لحظات، تحلم بعصافيرَ سَكْرى تَنقرُ لسانَها الوردي. على عتبـة البـاب، يقـف شـحَّاذٌ باسـماً، فيمـا تتسـكَّعُ روحـه بين صـناديق القمامـة، بحثـاً عن قنـانٍ فارغـة. "أنتَ شـجرة مأفونـة، أنتَ غيمـةٌ مُذَ دَّرةُ الحـواسّ، ذَرَّةُ رَمـل تَبْكي في أعماق المُحيـط..." ، يقـول النّـادل المقنَّع للكهـل الـذي يعمـلُ ساعيَ بريد بين النّجوم. لكنّ هذا الأخير كان يغطسُ عمودَه الفقـريّ في دَوْرَقٍ من نبيذ بابل، ويُفكِّر في عـذاب البشـرية الـذي يَـتمرأى في شاشـة صمته العنيد.

أُعيـدُ تكـوين المشـهد، فـأرى وجهي مثقلاً بكلمـات ذابلـة. كلمـاتٍ، أنفاسـي ستسـحبُ ها خلفهـا إلى حيث تـرتعش عظـامُ البحـر... لحظـات وأمضـي من شـارع إلى شـارعٍ يُطـارد خيـولاً غريبـة، وهي تهـرع نحو بَـرارٍ مُدَثَّرة بِ غَسـق الكحـول لحظات وأجلس إلى منضـدة مِن زَبـد، لأُنْصِـت إلى أقمار شاحبة وهي تَ بذر كآبتها في كأسي الأخيرة...

بدأتْ هذه الثُّلوج تصدأ...

أقفُ تحت نافذةٍ تتردَّد خلفها شكاوَى عَجزة ومتسوِّلين يتقاسمون خُبْز الملاحم القديمة. أقفُ تحت مطرٍ يقضمُ نهدَ عذراء تركض في مفازة العذاب، خلال هذا المساء الذي يزْفُ ل في فساتينَ من عوسج. طواحينه ثُفتِّت عظامَ الملائكة وأنا الذي استهللتُ هذا الإعصار الجميل، لا أرى على شاشته إلا أقدامَ الموتى، مغروسةً في صناديق القمامة، تتشمّمها الذئاب... بدأتْ هذه الثُّلوج أيضاً تَصدأ أمام عينيَّ اللتين كانتا يمامتين سجينتين، وجَلَدهُما أقزامٌ كانوا لا يُغادرون بطونَ أمّهاتهم إلا خلال أعياد المَجوس. نيرانُهمْ تتثاءب على وسادتِي كلَّ صباح. دموعُهم تَصهل في محجريّ ، فيما أصنع حماقاتٍ مُشِعّة من رماد الأيّام، وأترصّد أبواباً تُهرول بأقدام آدميَّة، منها سأدلفُ إلى مدن الماضي، مُنقسماً في جُسوم كثيرة قد يكون أحدها هذا الشدّاذ الذي يَغفو في محارة

بِحَجمِ خـرائبِ عُمـره الطّـويـل ومثلمـا ينـدلع شَـبقُ النّـار في قشّ صـيف جميـل، سـيأخذني الحـنين إلى سـاحاتٍ مكتظـة بالمهالـك، حيث عُميـانٌ يَسْـحَلون وجـوهَ هم المنطفئـة، إلى مـرافئَ تَـرسـو فيهـا سُـفن مُحمَّلـة بقلـوب الأرامـل، إلى سـريري الـذي أمضـي إليـه عـبرَ جسـور سـبعة، تتمـدّد على كـلّ منهـا امـرأةٌ تفتح لي ذراعين من غبـار.. وحين أصـل إلى نقطـة انطلاقِي، أَضـيعُ في متاهةٍ من الضّوء، نشيداً في فَم العاصفة.

مُختارات من:

محفوفاً بأرخبيلات...

رَحـيـل

حينَ سالتْ على جبيني

دماءُ الغَسق

اِعترتْنِي رعشةُ اللحظة العَمْياء

اِنسحبتْ يدايَ

مِنْ طُفولة الذَّهب

وبدأ وجهي يُسافر بلا كَلل

نحو مهابِّ الألم

هـامـشٌ لصهـيل فنـار

هُنا، تَحت أهدابِكِ أيَّتها الرِّيح، وأنت تُفكِّكين دَواليبَ الظّهيرة، وتنثُرين المفـاتيحَ على صَـدْر الميِّت، حيث ينضُـجُ الصَّـمت، ثم يَنسَـلُّ ثَخينـاً إلى خياشيمنا.

تحت أهـدابك، تخلَّصـنا من خُـطانـا الفائضـة عمـا تُحبِّذُه الطُّرقـات، وَمِن الصَّدأ العالقِ بسجلَّات أنفاسنا. وَأَدْنا النَّغمات التي استخرجنا من عويل العربات، وتشمَّلْنا بنجيع الوقت. وإنْ لم نحضُرْ دفْن آخر نهار قتيل، فإنَّ أفواهنا تركتْ هامشاً لصهيل فَنارٍ يُضيءُ طريقَ المراثي. لم نكن قَط أدْعيـاءَ إزاءَ مشـاعر العنكبـوت. نحصـدُ سـأم القمح، وبِكـوابيسِ الينبـوع نغتسـل. وليس بيننـا من أوقـع الضَّـغينة في قلب الصَّـبيحَة الـتي مـزَّقتْ نسيجَ سُهادِنا، نحنُ المُقْلِعِينَ عن معاقرة وسواس الخيول. وإذا السَّـنابك تجتثُّ صفير الحدائق، واللقالق تقضم لحم الدّقائق. وأهدابُنا تقذف شرارَ

اللبلاب. يَاما صادقْنا السُّهُول المتأنّقة. ياما تأوَّد قدُّ الغواية في أروقتنا بين مراياناوخطاياناوحتَّى حين بدأتْ فراشات نزقة تُربِّي في آذاننا عواصفَ وليدة، نحنُ لم نيأس. نرى إلى أرضنا الحيزبون، المُعلَّقة من شَعر عانتها بأسلاكٍ لا مرئيَّة. نتعلَّم منها الصَّبر.

لكنْ، قولي لنا أيتها الرِّيح الرّؤوم، ما الَّذي سنفعله بكل هذي الفصول التي بدأت تندلق، كثيفةً، من عيوننا؟

مُهِمّة

اِنْتخبتْني الليالي

لأشتارَ عسلَ الكواكب

المُتدلِّية فوق رؤوس

الغواني

لهذا "لا أذُوق النّوم

إلا غِرارا"

أَبَـديّة

وكأنَّها الأبديَّة

محمولةً بين مخالب نَسر:

كلُّ هذا البياض

المُدمَّى

وكأنِّي الامتدادُ الحيّ

لزوبعةٍ

غامضةِ النَّوايا

أَأَتلفَّعُ بِحرير الشَّمس

وأُصيخُ لهذا النَّدى الذي يَمُوء

في أحداق

الخُزامى

أَأَحْدُو النسيم

إلى مسقط رأسه

خلال هذا النَّهار الأكثر خضرةً

من كارثة

أمْ أبقى في هذه الغرفة النَّظيفة

إلّا من دِماء الأحد؟

مَـسرَّة

جاءها مخموراً

لِيَسرد على عينيها

نُعَاس اليمامة التي تَحيا

في صُندوق من طلّ

جاءها ولم يصدِّق

أنّه أفلت من أشْراك الرَّمل

وكمائنِ المصادفات

وأنَّ خيول الشَّوق المُجنَّحة

التي حملتْ على صهواتها

قرىً عديدة

إلى مجرّات بعيدة

هي التي أنقذتْه

من فحيح المسافات

جاءها مخموراً

في عينيه

هلوسات السّهر والترحال...

ومعها أقام تحت مظلَّة الهديل

محفوفاً بأرخبيلات

ولم يحزنْ أبداً

لدى سماعِه الأغصانَ الجريحة

تلتفُّ على قلبه العاشق

هو الذي جاءها

مَخْموراً

حاشيـة

أنفاسُ الصَّيف تتمتْرس خلف ضحكة الجبل

زَغبُ الضّوء يتناثر، حُمَّى من الألق

قريباً من الهاوية الزرقاء

ثمَّة بَحرٌ في سَمْت مَلِك

حوله حاشيةٌ من الغَرقى

وجنودٌ يَخبُّون على الثُّلوج

يَخُوضون حرباً صغيرة

ضِدّ فيلقٍ من النَّوايا:

بِلا مبالاة، تَعبر الريح فوق المشهد.

للشّتاء أسماؤه...

للشّتاء أسماؤه السّرّية

في رُدنَي معطفه تتخفَّى

العنادل الهاربةُ

مِن دُموع العدالة

وله أيضاً بيارقُه المرصَّعة

بهيْنَمَات قَوْسِ قُزح يتيم

حين تُطلُّ شمسه العابثة

وَسْطَ سماءٍ

تُقامر مع أسلافنا

بعظام النّوارس وفضَّة الغيوم

ويُلْقي ضوؤُها خطبته التي

يسيلُ منها عرقُ الأبالسة

على آذانِ نهرٍ لنا

نَنفضُ عنَّا نَقْع الكآبة

نتناسى الصَّباحات السّجينة

في قناني المروج

وننتظر

ننتظر أن تعودي إلى غُرفنا

أنتِ يا ملائكةً

مِن مياه

رَقصـة

أَعْدَتني هذه الورقة بِحُمَّاها

لا سبيلَ إلى الشِّفاء

من طقس هذه الأسنان

أَعْزَلُ أنا

حين مرَّ شهابٌ بنافذتي

لم يتركْ لي غير فُتاتٍ من نصائحه

ولأُمةٍ كانتْ لأسلافه

سأتدرّع بها ضِدّ كُماة الشتاء

وأُوغِل في العَزف

على كمنجاتِ الغواية...

لكنْ ما الَّذي سأفعله الآن

وقد بدأ هيكلي العظميّ

يرقص بجانبي

على إيقاع القُشَعريرة

أَلَق

الطّفلة الغريبة التي كانتْ تحكي لنا

عن رفقتها لقمر وديع ألثغ

والتي مضتِ البارحة لتنامَ جنْب المدفأة

قائلةً إنَّ عناكبَ مدربَّة

تنسج من نُخاع الزَّمن

خُمُراً لإناث الزواحف

ما زالتْ بعدُ لم تستيقظ...

ذلك أنّها ليست في مكانها

فهي تتمدّد على شاطئ بعيد

نَمضي إليه لنرى:

ثمَّة قواربُ محملَّة بأمواجٍ حوامل

والطَّبيبُ المسؤول عن صحَّة الزَّبد

ما إنْ رآنا

حتَّى سارع إلى التخفِّي

تحت كثافةِ ظِلِّه...

وهي، هنالك، مشدودةُ الأصابع

على وُرود الغيب النَّدِيَّة

وألسنةُ الموت تلعَق أجفانها...

ما يلتمع على جسدها

ليس برْقاً في حِداد

إنَّها الدُّموع السَّوداءُ لِريحٍ

تأكل الطَّيْر

من رأسِها...

مَصير

تلك العذراء البهيَّة

وَدُموعُها من حليب

كفَّاها مفتوحتان

لِضَحك الأعشاب

وفي كلِّ صباحٍ تَلتقطُ مِزَق الأحلام

المُتساقطة من أجفان الكواكب

وَتُخفيها في عيوننا

كلَّ مساء تكدّ، ونحن لا نزعجها

إنَّها تضفرُ أكاليلَ غاز

لِلَّذين من بيننا، خلسةً،

سيُصْلَبون

بَدأَ المطرُ يفاجئني

على محفَّة الهذيان

تتمدَّد شقيقةُ الزَّبد

مذْ صُعِقتُ ببروق جسدها

مذ عشقتُ حدائقَها المعلَّقة

بضفائرها

بدأ المطر يُفاجئني كلَّما غفوت

لذا فأحلامي دَوْماً

حافلةٌ بأقواسِ قُزَح

مختارات من

رايــة الــهَواء

العين

الكأسُ المُترَعة بمِلْح اللّيل

تجرّعْناها

أَسْرَعَ قليلاً من الحُمّى

ثُمَّ عَيْنُكِ التي تذْرو

بارود‌اً كثيفاً

على ألوانٍ كانتْ لِعَيْنِي

ثمّة أقمارٌ

في فضاءِ بيتنا

تنبضُ وتضخّ دماً

في شرايين الهواء

- «إنهنَّ كنَّ قلُوباً ـ تقولين ـ

أيّامَ كانتْ سنابلُ الحُبّ

تُصيخُ لهذيان الشَّمس

وكانت تلك الشّجرة الجميلة

تطوف ببراري نومنا

بحثاً عن يمامة

كانتْ قدْ تَحَوّلتْ فجأة

إلى غمامة»

- «والآن،

إذْ سنرحل، فَلْتعلمِي

أنّ عيونَ المَها

هنَّ اللّواتي سيُسْعفننا

على الجِسر

الجسر الذي سنعبُرُه

أعلى قليلاً

من الحمَّى»

- «لا تَنْسَ

ما دُمنا سنرحل

أن تأخذَ السَّكاكين الذَّهَب

فثمّة في طريقنا

جبلٌ صامت

يَكنزُ أنفاسَ العصافير

ويرمي المُدْلِجين العُزّل

بِأَعْين

الجرائم»

- «اُنْظُري

إنها البَبَّغاوات

المُنْبَجسة من خُطاك

تُؤلّف منظومةً من خَرَز

عن صعوبات الكلام »

الرّقْصُ أسهلُ حقّاً

لكنّ قلبَ الموسيقَى

مُثْقلٌ بِمِلح الليل

والعازف؟

جاء أطبَّاءُ

مختصّون في العين

والكعب والحنجرة

قيّدُوهُ شنقُوهُ

بحبالٍ

صَوْتِيّة

قدماه تتدلّيانِ تتدلّيانْ

تنقبضانِ تنبسطانْ

إنهما تُدَوْزِنَانْ

أوتارَ ريح الصَّـبَا!

أمام بـاب الحُبّ

أرضٌ وهّاجة

بِعذابات الحَجر، تَرِفُّ عليها

أجنحةٌ بيضاء

خلال أصائلَ بيضاء

مِن هنالك جِئْت، ولمْ

يَكُنْ في طريقي من مُفاجآت

سوى أنَّ بِضع شُجيرات

كانتْ، أحياناً، من فَرْط الدَّهْشة

تتحوَّل إلى كمنجات

بينما عيْنُ الحلزون

تقتنص ببريقِها

ألوانَ نُمور حالِمة

أنفاسي كانت تتغلغل

في رئَـتَـي مساءٍ مُعَربد

وفي أثلامِ أرضِ المرايا

من حيث جئت، مخفوراً

بجوارحَ سبق أن سَفَّت

من طَمْي العدم...

والآن، افتحِي الباب

قبل نضوب النَّشيد

المتصاعد من أهدابي

افتحي بسرعة

فَدَمُ اللّيل بدأ يتعفَّن

والجوارح التي تَخْفرني

والتي هي روحُ العالَم

قد تمضي لتضيع

في أدغالِ

كوكبٍ

بعيد!...

مختارات من

فراشة من هيدروجين

حتّى الصّحْراء

أُفكّر: لِمَ كلُّ هذي الدّموع

التي تتشكَّل خِفْية

تحْت أظافرنا

ولِمَ تتوجّسُ الأشْجار

من شعوب العصافير

أُفَكر: يجبُ أنْ نستمرّ في السّير

حتّى الصّحراء

التي تنبت فيها

المسامير

أحياناً، يَبدو لي

أنَّه لا مبرّرَ لوجودي

سوى أنِّي زاويةٌ

في مثلثِ رعشاتٍ

برْقٌ في غابة

شررٌ في عيون

الصَّيف

لفائـف سحريّة (1)

نحنُ وحيدان في هذا المقهى

ولا نأمةَ تَصل آذاننا، عَدا

هسيسِ عظامِ فجرٍ

يَشيخُ سعيداً

نُنصت، نُدخّن لفائف

سحريَّة، يَخِفّ

وزنُنا، نرتفعُ

مُبدّدَيْن في الهواء، مَطراً

ونُدَف ثلج...

الأرْضُ نفْسُها داخَتْ

فما عادتْ تجتذبنا

ويبدو أنّها كفّتْ

عن الدّوران!

غِربانٌ تحسبُ نفسها كواكب

بدأتْ تدور

حَولها

لفائف سحرية (2)

نُغنّي بألسنة الذين رَكضُوا

بِمُجرَّد ما وُلِدوا

فيما ثلاثُ غَيمات

تُحتضر حول رأسينا

الأمّهاتُ في هذا المقهى

أقلّ من أسمائهنّ

دخّنا ودخّنا

فمضتْ عظامُنا

لتؤازرَ أخانا المطر

أخانا السّاقط لكنّنا

نُبجّله

من الدّخان صُغْنا أطفالا

دلفوا إلى بطن أُمّ

وهناك تلألؤوا

لفائف سحريّة (3)

مِنْ حولنا قلوبٌ صغيرة تُشقشِق

وصناديقُ يُقالُ فيها الحديد فيه

بأسٌ شديد

لكنّنا ندخّن و جَداولُ النّسيم

بحُنُوّ تُلامس أكتافنا

نَعلمُ أنّ جسدينا

قد يَضيعان في هذه العاصفة من

التّصْفيق

الآبار محظورةٌ في هذا المكان

إنّه المقهى الذي وَأَدوا

تحْت آلام القمر

يومها، تركْنا رأسينا

في غابة

لتستعملها العنادل

المضروبة الأعناق

في ربيع العمر

رأفةً، لم نُوقظ الدّموع

المتمدّدة جَنب رأسينا

وكلما عَمّ الأرقُ أعالي الجبال

زوّدْنا الجداولَ المُنهكة

بِنغمات و مُسَكّنات

كنَّا بعدُ في ربيع العُمر

فما إنْ ضَرَبْنا خِياماً

لقبيلةِ الرُّضّع التائهين

حتى دفعتْ بنا العصافير توّاً

إلى مشارف السّتين

واحدٌ منها امتزج بهمسك

ثمّ طار بعيوننا فلم نعدْ

نُدرك منه

إلا الرّفيف!

لكننا، بالتّأكيد

سنسترجع هاتيك العيون

حين تسقط مع الثّلوج

في صباح شتائيّ

خيرٍ

من ألف

شهر

ذِكْرى

كان عليَّ أن أكون حاضراً

أثناء الاستقبال

أنْ أحتملَ كُلَّ تلك القَسوة

أنا الذي لمْ أقُلْ يوماً لِجَدول:

اصمُتْ

أنا الذي كنْتُ أشْتري النّوم

بِنقود مسكوكة من أعصاب الجبين

ولا أرى في الحُلم سِوى

شجرةٍ من ماء

فيها يغرقُ العُصْفور

وتنْطفِئُ جمرةُ الرّيح

قُمْ لتكون حاضراً للاستقبال

قال أبي

ذلك أنّ أحد أسلافنا

قدْ أبْحر

من ميناء

الموتى

بِحنين

أحياناً، أستدرجُ كوابيس

إلى غُرفة نومي

صمتي جَبَلٌ

مكسوّ بالجليد

فما عليّ إلا أنْ أُمسك عن الكلام

لأتزلج و أنْتَشي

لكنْ أمتعُ من هذا

بعضُ الكوابيس التي تندثرُ فيها

سُلالات

وتتبخّر جُزُر مِغناج

وتتذكّر الصّحراءُ البحر

بِحنين

رسـالـةٌ إلى نفسي

أنا على ضفّة نهر.

السّماء مُلبّدة بزعيق صفّارات الإنذار

في أحد الكواكب.

أسْمع أيضاً قرعاً في عظامي

فكأنّها طبولٌ دَقيقة.

في وسط النَّهر، تظهرُ السّمكة

آكلةُ الغَرقى.

على الضِّفة المُقابلة، امرأةٌ تتعرّى.

وهاهي تسبح على ظَهرها، تتلذَّذ

من ركبتيها.

تُقْبل نحوي ثم تَعكس وجهتها.

إنها متردِّدة، إنها متردِّدة.

مياهُ النّهر غاضبة من هذا.

غضبُها يَصَّاعَدُ شَفراتٍ

تُصيب الكثير من صغار الطير.

هل أبْقى على هاته الضِفّة

التّعيسة ؟

يَمرق أمام عينيّ طائر

إنه يَشحُب ويشحب

ربَّما هو خائف من الشَّفَرات

ربَّما هو يتذكّر الشجرة

التي احتضنتْ

حُبّه الأوّل.

أأبقى هنا

مُنصتاً للقَرْع المُتصاعد

من عِظامي؟

كُنْتُ من أبطال هوميروس

أُريدُ أنْ يبقى النّسيم على أناقته

أن تحضُر الفرس في الموعد

وأنْ تمضيَ بي

في الوجهة التي تختار

أريدُ نهراً يُوَشّح صدري

فالبارحة، رأيتُ في الحُلم

أني نازلتُ آخيل

في الإلياذة

في الواقع

لا أُصِرّ على شيءٍ من هذا

فأنا الآن هادئ

وعيناي وحدهما العنيفتان

والتّفاحة في يدي...

كيف يُمكنني أن أُشعل السيجارة، وكلُّ القدّاحات تَخَفّتْ في رُدنيك، مُذْ رأيتِ في الحلم أنك تُحرقين خدِّي.

بـالأمس، كنَّا في الطَّريـق إلى عيـادة الطَّبيب، ومـرّ أمامنـا صـديقي المجنون. كان يُكرّر: النّحلة تحت السّـاطور، النّحلـة تحت السّـاطور، وشـعرتُ أني سأبكي أو أضحك، لكنّه اختفـى سريعاً، وكـان دمٌ ينسـابُ من الحُقَن التــي تَخبّ جنب أقـدامنا، والطّقس بـداخل آذان الكلاب يتحـوّل من فـاتر إلى شديـد البرودة، وفي الأعلى، عينُ الرَّعد تتَّسع وتتسع.

لماذا تريدينَ إحراق خدِّي؟

مسـحتُ أعصـابي بإسـفنجة كمـا يفعلـون أحياناً بأعصـاب السـَّيارات، ثمَّ وجدنا نفسينا على الشّاطئ، وأردنا أن نتأمَّل البحر. لكنْ لم يكن قـد بقي منـه إلا سـبعُ موجـات عجـاف، يحملن في مقاعـدهنَّ الخلفيـة سبعَ نسـاء ضـاحكات. إلى أين يتّجهن بهن؟ في كـفّ كـل امـرأة شـمعدان. وفي

الجحـور القريبـة، سـقط مطر على الفـئــران. وكـان هنالـك من يَطـوي البُسُـط ويَفرشُ الصرخات.

لماذا تحلمين بإحراق خدي؟

الطَّبيب قال لا تركبا، بعدُ، سيَّارة جريحة.

حكاية

رَجلٌ مفتول العضلات

يستطيعُ أنْ يُلاكِمَ الزَّبَد

مع هذا، جِدٌّ رقيق

رأى يَدَي الفجر تُقطعان

فأجهشَ بالبكاء

ومن دموعه

تكوّنتِ اليدان مُجدّدا

أكثرَ من عشرين مرّة، نزل الدَّرج

نحو غُرْفة الأحد

في كُلّ مرَّة، يَطرق الباب مُطَوّلاً

ولا من مُجيب

بَدأ شكُّه ينكشُ لحيته

وأخيراً، أدرك أنّ الأحد قد اختفى

أنّ الأيامَ المُتبقية

في حِداد

وأنّه يَطرقُ باب غرفة فارغة

إلا من رائحة الدّم

وبقايا

كوابيس

مختارات من

رَجُل يبتسِم للعصافير

مُنذ دهر

منذ دَهر وصنَّارتي في الماء

ولَمْ أصطدْ سوى السّأم.

لا أرى غَيْرَ قوس قُزحٍ يَنزل

وبإبرٍ ذهبيَّة

يُطَرّزُ حواشي الأمواج

ولا أسمعُ سوى أنفي الذي يئزّ كَنحلة

كلَّما أفرغْتُ زِقّي.

ثمّ خَرَج نديمي المساء من البحر

وأَقْبل نحوي

حاملاً طَيَّ أجفانه

سَمَكاً كثيراً وفي كفّيه

مَحارُ طفولتي!

مِزْوحة

اِبْـقَ في بيتك فلا جديد في الخارج

أتُرَاك تريدُ أن تَخرج لترى المجنون

يتأمَّل في غيمةٍ - مِرآةٍ

نِصْفَ وَجْهِهِ الأثيرِ لديه

أو لترميَ بحجر

الخذروفَ الخَرِف

الذي لا يكفُّ عن الدّوران

أمْ أنّك تريد أن تلتقط صورة أخيرة

لمِزْوحتِك المسكينة

التي تفكّكتْ عظامُها

بعْد أن لفظْتَها بلا رأفة

أيُّها القاسي

يا حفّارَ قبور القناني

هكذا تحدّثَ إليّ طيفُ أوفيليا

وأنا أمضي نحو الباب ومِنْ بعيد

يصِلُني هديلٌ حمائمَ

مِن نَبيذ!

مقادير مجهولة

مَعَ الفجر جاءتْ من مغاوِرَ بالشاطئ

حِسَانٌ مُشاكسات

وبأنغام النّايات

شرَعْنَ في تهييج أشجارِ

الشَّارعِ الكبير

في الصَّباح تَوَزّعَ في جنبات المدينة

أطفالٌ من مرجان

ليحرسوا باراتٍ يؤَمّها عميانٌ

وخيولُهم

بعد الظَّهيرة كان مِن بيننا منأَ غفى

في سينما مِيالِيسْ

فيما كانتْ سَارَة مايْلز

في دَوْرِ ابنة رايَنْ

تتلقّى الشّتائم مذعورةً

بُعَيْدَ الغروب ظهرت أشْباحُ

درّاجاتنا القديمة

وبدافع الحنين اعترضتْ سُبلنا

في الليل ربّما تُوجَزُ المدينة

هل حقّاً ستُصبح

في حجم قبضة اليد

بعد أن عشنا فيها زمناً

كمقاديرَ مجهولة

في مُعادلات الرّيح

والليالي

من نصائحِ جدّي ومأثور أقواله

- لا تأبهْ لهمْ إذا

وضعوا عظامكَ تحت المراقبة

أَخْفِ الأجراس في الأعشاش

رُصَّ أحلامَك في الأقداح

دُسَّ الكهرباءَ في الأحجار

فلن يعثروا ضدّك

على دليل

- لا تخرجْ في منتصفات ليالي الجليد

إِذِ المقاهي وحدها تجوس الشوارع

والعَسس مُغلَقو الأبواب

ولا تَبِعْ حذاءك القديم

أُتْركْه حتّى تعود من سفرك

واسكُنْ فيه

- إذا رأيتَ الجرادَ يغزو رئات الرَّاقصات

وَزُكِمت الغُرَفُ وعزّ الدّواء

إذا رأيتَ مجنوناً يَلفّ صرختَه على ساعده

وأُنثى من طحالب يُضاجعها غريق

فاعلمْ أنّها حربٌ جديدة

تتهيأ في الخَفاء

- لا تُسافر أبداً

إذا أضربَ ربابنةُ البرق

وسرَّعتِ الأرضُ دورانها

لتُدَوِّخ النّمل

وتمّ استنساخُ الرّيح

فهذه كلُّها

من علائم النّحس

- لا تَبِع القناني الفارغة

إذا كان ينبعثُ منها الشّخير

واتّبعْ نصيحةَ أبي حيّان

فلا تنمْ إلا وقُربَ رأسِك حجر

أو حَجَران

- إذا اقتربتْ منك نملة

ورأيتَ في عينيها صُفرة

وسمعتَ صرير مفاصلها

فاعلمْ أنّها لا محالة هالكة

وإذا رأيتَ الدموع

التي تتهادى على الأعشاب

قد سارعتْ إلى دخول

غيرانها

فاعلم أنها توجّستْ من خطاك

إيّاكَ ومشية العسكر

- ولا تترك قطّ أنفاسك الاحتياطية

في مُتناول غَيْرك

- إذا اندسّت السّجائر في شَقّ

حائط

لا تَشُقَّ عليها

لا تجعلْها تخرج من مخبئها

مرغمةً

اِمضِ لتتجوّل بعض الوقت

وإذا مررتَ جنبَ جدولِ لُعاب

فحاذر أن تطأه بقدمك

اعلمْ أنه تسلَّل من سجنٍ للشّفاه

واسألْ عن بيت المُهندس الذي

اكتشف آبار نفط

في جمجمته

إنّه عَمُّك

الذي أنجبتْهُ لي امرأة

من الماضي السَّحيق

تعرّفتُ إليها وهي بعدُ

محمّلةٌ بموج الشّمال

في سنة زحفت فيها الكهوف

على المدن

وصارتْ، رحمها الله، في آخر

أيّامها

تَسُوخُ، شيئا فشيئا، في الثّلج

المتهاطل من ذاكرتها

إلى أن اختفتْ

كُلّية

- إذا كنتَ في سفر

ووجدتَ نفسكَ على مشارف

غابة

وأظهرتْ لك نبتة قُرّاص

لسانَها

فاعلم أنّ المثلَّثاتِ قاطعةَ الطّريق

تكمنُ للعابرين خلف الأشجار

تأهّبْ

أَخْرِجْ قوسَك

اختَرِ الأصلبَ من سِهامك

وإذا خلّصتَ النّاس من ذلك الخطر

ربحتَ بطاقة سفر إلى جزيرة

جميلة وَشَبِقة

تَجدُها في استقبالك

عاريةً

ربّما يكون لي حصان

الفتاة التي أحببتُ وأنا في السّادسة عشرة

في البداية، لم تُبادلني عواطفي

حزنتُ ثمّ نسيتُها

لم أعدْ أترصَّدُها كلَّ أحد

أمام بيت أبيها

حيثُ تصنعُ الكعك

تَدْرُس حياة الجراد

وتُنْصت إلى أغاني الحاجَّة الحَمْداويَّة

يحلُّ الأحد، فأمضي إلى البارثمّ

إلى ملعب كرة القدم

لتشجيع الفريق الذي أُناصره

إنّه دينامو البَرْنُوصي

أو إلى البار ثمّ رأساً إلى غرفة مريم

التي تبيعُ لي الهوى بالدَّين

وفي المُقابل

أُطفئُ الضّوء قبل أن أستلقي

في سريرها

وأتخيّل أنّها الفتاة التي أحببت

وأنا في السّادسة عشرة

بعد وقتٍ سئمْتُ لُعبة التَّخيل تلك

وأصبحتُ أضاجِعُ مريم باعتبارها

مريم فحسب

التي تروي لي قصّة حبّ

والِدها العسكري وأمِّها

التي قضتْ طفولتها في اليونان

ثمّ في غِمد سيفِ أبيها

لكنّ القصص، كما لا يخفى عليكم، لا تنتهي

كلَّ يوم أحد

تخرج الفتاة التي أحببتُ وأنا

في السّادسة عشرة

تمضي لتُحيّيَ البحر، ثُمَّ لشراء

مجلّة متخصّصة في وصفات

الكعك الجديدة

تتمشَّى على قارعة الطريق تتلقّى

التّهنئة من رجل يجوب البلاد بحثاً

عن امرأة أضاعها في مرفأ

يقول الرجل إنه يهنّئها بمناسبة

حصولها على البكالوريا

لكنّي لم أجتز بعدُ الامتحانات، تقول هي

فيخجل الرّجل البدين

وينصرف ويقوم بجولة في رِواقٍ

بالسّوق الأسبوعيّ تباعُ فيهِ النَّاياتُ

بحثاً عن ناي مسحور

يُمكنه أن يعزف لك تلقائيّاً سيمفونيةً

أو موسيقا أوبرا

لموتسارت لهايدن لمِنْدِلْزُونْ

أن يُغنّيَ لك أغنية

للحاجَّة الحَمْداويَّة

أما هي فتنصرف لتذرعَ أرجاء

جناحٍ من السوق الأسبوعي نفسه

خاصٍّ ببَاعَةِ الوجوه القديمة

ومُساعديهم

من الكيميائين العميان

بحثاً عن وجه شهرزاد ووجه حسناء

من تمبوكتو

ووجه غريتا غاربو

في البداية، لم أكن أعرفُ أنّها

تستعدُّ للتنكّر، كنتُ وقتها

في الملعب أَصْفِرُ بأقصى جهدي

ضِدَّ الحَكم الذي أَعلن عن ركلة جزاء

ضدّ دينامو البرنوصي

لكنّي هذا الصَّباح، غِبَّ ليلة اعتقدتُ أنّي

قضيْتُها مع واحدةٍ من أجمل فتيات تمبوكتو

اكتشفتُ أنَّ ضجيعتي

لم تكن سوى مارية، الفتاة التي أحببت وأنا

في السّادسة عشرة

لقد استعمَلتْ قناعاً إذنْ

بعد سنة من الآن سنتخاصم

بعد سنة من الآن

ستكثُر الدّرّاجات النّاريّة على

الطّريق التي تؤدّي إلى بِرْكَة عَوّا

بعد سنة من الآن ستتلوّى هضبةٌ

من مَغص شديد

والمداخنُ ستتطوّعُ لتحمُّل آلام الولادة

عن الفَتيات الحوامل

بعد سنة بعد اثنتين بعد ثلاث

سأكون في غابة بعيدة

لن أكون قد أصبحتُ فهداً أو ببغاء

سنجاباً أو زرافة أو عظاية

لكنْ ستُقيم معي امرأة في كوخ في غابة

أو في كوخ على شَفا حوض

تعيش فيه تماسيح

صغيرة مسالمة تستطيعُ حتّى أنْ

تُصافحكَ بأطراف أذنابِها

هنالك قرب تمبوكتو

سيكون الطّقسُ حارّاً جِدّاً

وربّما سيكون لي حصانٌ عِظامُه

من شرَار

حصان هادئ جدّاً روحُه

من مسحوق الذّهب

ربّما تكون لي درّاجة

تستطيع بصرير عجلاتها

أن تَصنع السّراب

الذي يجتذب عابرين كثيرين

هكذا سيُمكنني أن أستقبل في كوخي

راقِصاتٍ شهيراتٍ

مثل الجوكندة

وأبطالاً في القفز العُلوي

مثل حمُّورابي

بعد سنة بعد اثنتين بعد ثلاث

فثمّة أنفاسٌ باردة

تنطلق الآن من عينَيّ

وتُصبح ضبابة كبيرة

تجدُها في المساء قد حاصرت

القطارات والأرامل

لذا أسارع بِالوقوف وربّما بعد دقيقة

بعد دقيقتين بعد ثلاث

سأغادر هذه الغُرفة

في طريقي إلى بار مارسيل سيردان، ألتقي

زميلتي في العمل، لا أستطيعُ تذكّر اسمِها

لكنّها تدعوني لمعرض لوحاتها

الذي تقيمه في عُرض البحر، بحثاً

عن التّميّز

لا أستطيعُ أن أسبح حتّى هناك، أقول لها

فتُجيب: لقدْ أصبتُ شَعْرَكَ برصاصاتي

وفي شارع الإربيانة، أجد أعزّ أصدقائي

في انتظاري

نمضي لنشرب معا إنّه ذو سُلطة في البحر إنّه

ينشغل الآن بتوجيه سِهام البارانويا إلى

أيائلَ مُتَخفّية خلف عجلات السّيّارات

فيما أفكّر في مُستقبلي

وما سأفعل وما سيحدُثُ لي

بعد سنة بعد سنتين

بعد ثلاث

قُرْبَ السَّناجب

العشيقة غائبة منذ أيام

الغرفة نائمة منذ ساعات

مُطوّقةً بسياج من لُعابِ جُدرانها

وأنتَ أمام الباب

ولا تَدْخُل

وكُنْتَ وقفتَ أمام باب المسرح طويلاً

ولم تدخل ثمَّ جاءك الخبر

بأنَّ الممثِّل القصير الذي كنتَ تنوي

أنْ تُجْرِي معه حواراً لصحيفتك

اختفى مِنْ علَى الخشبة بعد أن

تهشّمتْ أوفيليا

وتناثرتْ قِطعَ زجاج

قالوا إنَّ لِلْمُمثل القصير أنفاً

من الهَمْهمات

قالوا إذا أُغْمِيَ ثانية على الشَّفَق

سيَظهر من جديد

الموتى ساكنو القناني

ويهطل المطر

وتبرز تجاعيد الحلزون الهَرِم

ليس لازماً أن تكون هاملت

لِتشفقَ على أوفيليا

ولا داعيَ لأن تركلَ الباب بعنف

من أجل أن تُوقظَ الغرفة

وإن جاءتْك من الدَّاخل

أصواتٌ ارتطام الرُّوبوطات

فمعلوم أنها تنبثق

من رواية الخيال العلمي

المفتوحة على المنضدة

قُرب قَطرة الحبرِ المَهيبة

وأجراسِ النّحو التي ترنّ

على رأس كلّ ساعة

لا تنسَ أن تكتبَ إلى الغائبة

ياه! إنك تتطلّع إلى الأشجار

ياه! كم السّهر طويلٌ على الأغصان

وفي مدفن الألوان النّافقة

ياه! في الأعالي غيومٌ من السّلوفان

تُخشخش في الرِّيح الباردة

لا داعي لأن تركل الباب

يحدث أن تنام الغرف

أن يتناثر أحدهمْ شظايا

أن تَفِرَّ امرأة من تعاسة رجل

ومع ذلك تستمرّ الأرض في

تلميع شعرها

اِمْضِ بروح المتشرِّد التي تتقمصك

واقْضِ الليل في واحد

من جراح الغابة

قرب السَّناجب الهاربة

من الغِيـتُّوات

جَدّ

على أقدامهمْ التي مشَّطت شَعْر الحُقول جاؤوا

من كابوس القبيلة كانوا قد نبشُ وا دموعاً

ليستعملوها في أيَّام الحِداد السَّبعة

كانوا من عشيرة يشترك أبناؤها دوماً

في نفس الأحلام

في الليلة الفائتة

رأوا في المنام أنَّهم حلازين

لم يستغربوا الرؤيا

رغم أنّ الفصل لم يكن شتاءً

مِن مُستودع للأموات تُحْفظ فيه جثثٌ إلى أن

يحضرَ الأهل لدفنها، سَرَقوا

جُثَّة صديقهم

غطسوها ثلاثاً في بُحَيْرَة

نقلوها في عربة من شارع إلى آخر

وفي الطّابق الرَّابع للمَلهاة

أجلسوا الصّديق على أريكةٍ في البَلْكون

مُوَلّين وجهَه شطر المَسْبَح الذي

يبدو، من عل، كأنّه غير واقعي

وفي الآن نفسه، بيِّنَ المعالم

عينا الصّديق مُوَجَّهتان إلى أسفل

كأنَّما هو، أيضاً، يتملّى بخضرة الماء

بمرأى أجساد غضّة

لإناثٍ يَحْقُـنّ صُدورهنّ

بِقليلٍ من وَهَج الأصيل

الثّلاثة شربُوا في صحة الصّديق

لم يـثْـنِـهم عن ذلك علمُهُم أنّه ميِّت

بل إنّهم وضعوا أمامه كأساً

وهو لا يدري كم ساعةً مرَّت على موته

لكنه يُدرك أنَّ مُجالسيه

نثروا على وجهه أحلاماً بيضاء

كانوا قد اشتروها – للمناسبة-

من سُوق ليْليّ

يَذكر أنهم ألبسوه ثياباً

القميصُ جميلٌ حقّاً

لقد نَسجتْه بأسنانها عاقر

كانت قد تبنّت كُوسَاةً ونحلتين

قبل أن تتيه في الحقول

مُلوِّحة للفراغ

بجدائل تعود إلى أيام

طفولتها

يَذكر آخِرَ مرّة دخل فيها بيتَه

وكَيْف فوجئ إذ لاحظَ أنّ الأبواب

أصبحتْ من عجين

وكيف أقلع -أمام عينيه-

الموقدُ بجمراته المشتعلة

ودوّم طويلاً في المطبخ الذي

كان، هو، قد زيّن جدرانه

ببلاطات اقتلعها من قبور

ما كان أحدٌ، بعدُ، ليزورَها

لكنه، الآن، لا يستشفّ جنب المَسبح

إلا أشكالاً هُلامية

فيما جلساؤه يتحدَّثون عن خُودٍ حِسان

يُدغدغ ظهورهنّ النّسيم

عن قطراتِ ماء خُضْر

تلتمع على أَرومة نهْد

فكيف لميّت أن يُبصر حتّى

وإن كانت ثمّة عين

تُوَشّي جيبَ قميصِهِ المُطرّز

حتَّى وإن كان حديثَ عهدٍ بالموت

وكانت العينُ نَجلاء

حتى وإن كان في آخر جلساته

على سَطح الأرض

حتى وإنْ، بين عينيه، كان يَعْبُرُ تابوت

يَنوء بحمولته من الأجراس

كيف لميِّت ألا يتّخذ بين جلسائه

هيئةَ جبلٍ مَنفِيّ في جزيرة

ستجيئه عصافير من أغصانٍ في جرح

وبمعاولَ كانت، لسنين،

ذاتَ سطوة في المستنقعات

تكسُر أحجاره وعِظامه

في البرد أغفى الأصدقاء

ويَدا الميّت موضوعتان على قوس قُزح

انداح، بأناةٍ، من كأسه

لكن، هلْ لميْت

ألّا يضجرَ بين الأحياء

والقرقعةُ على أشَدّها في نوم جلسائه

والمساءُ قد ظهرتْ حَدَبَته

وثمّة أطفال أطلّوا من باب موارب

ثم فرّوا خائفين

كان الأصدقاء قد استيقظوا ثم ناموا

ثم استيقظوا، وأخيراً قرروا أنَّهُم

استمتعوا برفقته

كما لنْ يتسنّى لأحدٍ أن يفعل

وأنه آن الأوان ليتخلّصوا منه

تحت جُنح الظلام

أَيدفنونه، إذاً، في حديقة،

أيرمونه في البحر؟

لا، بل يُمَدّدونه أمام باب

مستودع الأموات

فالبحثُ عنه، لا شكّ، جارٍ

هذا ما اقترح أكبرُهم

الذي كان قد هيأ له شاهدة قبر

سيتركها تحت رأسِه

إن مرّ أحدٌ بقبره، سيقرأ على تلك الشاهدة:

- هُنا ينام نومته الأبديّة

البحّارُ الذي قضى ليلته الثّانية كَمَيّت

ساهراً، يتملّى بأشكال سبّاحات مشيقات

من الطَّابق الرابع للملهاة

الذي كان، أيضا، شاعراً

وكتبَ أبياتَه الأخيرة

في مدح إبرة بقيتْ، بإخلاص،

ترفو ثيابه إلى أن ابيضّت

عيناها

الذي غطس في أعماق بِدَار

ظَهَر في أحلام سفن

شاركَ في تشييد مدنٍ

من مَرجان واشتغل بمهنٍ أخرى

الذي، في طفولته،

أنقذَ أراغنَ

كانت، من فرط كآبتِها، قد ارتمتْ

في آبار

الذي لم يَحضُرْ قطُّ

إعدامَ شمعة، وجَابَ قُرىً بعيدة

على صَهوة حصانٍ من

اللوبياء، ثم مات

غريقاً، بعد أن صارع الرّبْو

زَمناً، وفي آخرِ

أيّامه، طال قذالُه، لِعكوفه

زَمناً على صُنْع سُروج

من ثُلوج، وأصبحتْ له غُنَّةُ

مَن ينفثُ الكلمات

عبر أَنْفه الزّجاجي، وشفتان تشتغلان

بالكهرباء

مختارات من

عُيونٌ طالَما سافرتْ

قُبيْل الغروب

قُبيلَ الغُرُوب، نَفَضَت الحُقُولُ

عَن ظُهورِها قُطعانَ المَواشي، فلم تَذَر

لها من أثر

هكذا، لم يَبْقَ في جنباتها الذّهبيّةِ الأعشاب

سوى بعضِ الثُّغاء الخفيف

الرُّعاةُ عادوا حَزَانَى

وأرادوا الاخْتِفاءَ عن الأنظَار

فدَلَفُوا إلى الزَّرائب

وَحْدَهُ الرَّاعي الأحمق بَقِيَ واقفاً

وسط القرية

مُتهلِّلاً، يَعزف للرّيح

مُتَرَجِّياً أن تجلبَ بناتِها شبيهاتِ الدِّبَبة

حتَّى يرتعبَ منهنَّ الأطفال

المتحلِّقون من حوله

فيضحكَ من قفزاتِهمْ وصياحِهمْ

ومِنْ رَفْعِهِمْ لعقائرهم

بنداءِ أمّهاتِهمْ

بَحْر أسود

قارِبُ النّوم يَمْخُر بي عُبابَ بحرٍ أَسْودَ يُبْعدني

عنْ غُرفتي في هذه الليلة الشَّتْوية

الموجُ العاتي يتقاذفُه

سيوفُ البرقِ، أيضاً، تَهْوِي

في الأعالِي، بلا رحْمة

وخَوفي يتركّز في حاجبيّ

لكنْ، فوق رأسي، أنصافُ الطُّيُور

التي بقيتْ حيَّةً بِمُعْجزة

تَضعُ رُضّعاً في مُهود

وصَرَخاتِهِمْ في صناديق البَرْد

وَتَعِدُني بحياةٍ جَديدة

حَالَمَا أستيقظ

مِن هذا الحُلم العنيف!

نُنزِل قِرْميداً من العَربة

نُنزِل قِرْميداً من العربة فيما

على كُومَةِ الرَّمل القريبة

نَحلةٌ عَطُوف تُزْجِي لنا نصائحَ بالأزيز

إنْ نُطبِّقْها تَتقوَّ عضلاتُنا بالتّأكيد

فنحنُ نريدُ أنْ نبنيَ مأوىً للعجوز

الَّتِي مرَّتْ بنا مترنّحةً في الشّتاء الماضي

واختفتْ في حَقْل العَدَس

مرّتْ بنا آهِ مرْرْ.. رَتْ

مرّت بنا مرْرْ.. رَتْ

هكذا غَنّينا لكِ يا من ترنّحْتِ

في الشّتاء الماضي

وأنتَ أيّها الماضي، يا مُقَوَّسَ الظَّهْرِ،

يا أَدْرَدُ

لقدْ أَتْرعْنا جيوبَكَ صُوَراً وأسْنانَ حليب

وأنتِ يا مُدَرِّسةً كان رأسُها

يُؤلِمُها في الأصباح خاصَّةً واسْمُها

كان يبدأ بالجيم

تَرَكْنا لكِ ما تيسّر من هَأْهآت

ونَمَشاً كثيراً

كلُّ نمشة لها مفعولُ حبّة أسبرين

كِرامٌ نحن وأطفال وسعداء

ولم نعد مغروسين بين نباتات الحُرَّيقة

كما كُنَّا عليهِ في واحدٍ من أوائل

أحلامي

نمدحكِ يا مُترنّحة وكم ودِدْنا

لو دغدغنا إبطك الأيمن

فقد عَرَفْنا أنَّكِ جدّتُنا بعد أن

سمعناك ذاتَ ليلة

تُعلّمين رُضّعاً

كيف يصطادون شُهباً بالشِّباك

وقيل إنّكِ ذاتَ سهرة كنت تُربّتين

على حدبة الرّاقصة

فيما كنّا نَنفخُ في الهَرْمونيكات

نَنفخُ ونَنْفخ

نَنفخ فيها لتبقَى مُعزَّزةً ولا تَصْدأ

فَيُلْقَى بها في غياهب السّجون

ننفخ ونُغَنّي: مرّتْ بنا آه مرْرْ.. رَتْ

مرّتْ بنا مرْرْ.. رَتْ

وهكذا إلى أنْ ننتهي من البناء وَوَقْتَها

سنُقيم حَفْلاً

يَحضره الباعة المتجوّلون والمساكين

وراقصة حدباء

وابنُ السّبيل والمُدَرّسة بِصُداعها

النّصفيّ

وكذلك الوجودُ والعدم

والتّلميذات اللطيفات اللواتي فتحنَ قلوبهنّ

لِلسَّيَّارات الصّغيرة الحزينة

التي وُلِدتْ

بلا عجلات

قَدَمٌ مَنْسِيَّة

كان عندي كتابٌ نادر: "كيف تُصبح بَرمائياً في خمسة أيام". أبي أحرقه لأنّه، حسبما قال، لم يكن يحبّ السّلاحف وأشباهها.

إثْرَها، غادرتُ البيت مُغْضباً، وتخفّيت شهوراً في تنهيدة امرأة.

ثمّ نفختُ في صَبيحة فصيّرتُها بالوناً لعبتُ به زمناً وعثرتُ على أقدم طُحلب في التّاريخ تحت قدمٍ قديمة جدّا ومنسيّةٍ في حقل، فتركتُها تَركل ذلك البالون وتُنجِز المراوغات.

قلتُ في نفسي لعلّها قدمُ أبينا آدم التي كان ركل بها تفّاحةَ الجنة ليُصَيّرها بالوناً وهي حقّاً تستحقّ أن تكون قدمَ لاعب كرة قدم مُحترف يُهاجم ويُسَجّل الإصابات في الجنّة.

ثمّ عُدت إلى البيت وفي اليوم نفسه أصلحتُ ذاتَ البين مع العائلة.

أَدْهَشَنِي، فَحَسْب، أنّ القِطّ لم يَبْقَ منه غيرُ شَبحه.

وفي الفجر المُوالي، كنتُ في وسط المدينة مع الذين يَقْذفون أحجاراً صوبَ حارس السّاحة التي خصّصَتْها الحكومة لانتحارِ المجانين.

هذه المغامرات، لِعِلْمكم، حُفِظتْ في أرشيف الرّيح، هنالك خلف جبال الهملايا.

أنا الآن

أنا الآن في قرية جدّي

أقتعد كرسيّاً صغيراً تحت حائط الجامع القديم الذي

يتدلّى حواليه صبّار كثير

وثمّ ة كلاب تقضي قيلولتها في ظلّ كومة تِبن

فيما تتحادثُ جماعة المقامرين تحت شجرة

خلف الجامع

بأصواتٍ خافتة ومتوتّرة

عن عبد السّلام بائع الكَيف

وكيف اعتقله الدَّرك في الصّباح

وكيف كانت الومضات تنثالُ من شَيب رأسِه

قويّةً

وتتناثر في الجوّ متأجِّجةً

أتُرَى كان ذلك من خوفٍ شديد

أمْ من حِقْدٍ عنيف

أمّا أنا فكنتُ أيضاً قدْ قامرتُ ذات صباح

بحصانٍ صغير

وسَاعَتَها كانتْ أنغامُ جازٍ تتنامى

في أذني اليمنى

وفي اليُسْرى كان يُسْمَعُ حدّادون

وهم ينهالون بمطارقهم على

حَدَواتٍ وخسرتُ حصاني

الصّغير

وها أنا تحت حائط هذا الجامع القديم

أتابع قراءة رواية

روايةٍ رهيبةٍ عجيبٍ أَمْرُهَا

ياه!

ما أكثر قتلاها

المُعلَّمة تُزَيِّنُ بدْلتها

المُعلَّمة تُزَيِّنُ بدْلتها بِطَائر

في حجرة الدّرس تقول إنّ المعادلات

اختفتْ فجأةً من رأسها حين كانت تَسبح

في البحر

تلميذةٌ قالتْ ربّما أكلتْها الأسماك

فقلنا جميعا: ربّما، رُبّما

بِمُشْطٍ طويلٍ حَمَلتْهُ إليها الرِّيح

تَفْرُقُ المعلّمة شَعْرَها من الوسط

لكنَّ من يصفّق منّا أكثر ممَّا يَجب

سيُحْكَمُ عليه بالطّواف سبعَ مرَّات

حول المجنون النَّائم

قُرْبَ محطَّة البنزين

غريبٌ أَمرُ هذا الحقل...

غريبٌ أمر هذا الحقل

إنّه متجهّمٌ على الدّوام

وهذا النّاي

الذي ليسَ سوى بلعوم مديد

وهذي البئر التي حفرناها

أيامَ المُراهقة

وها قد وَلَدتْ قُمصانا ووزّعتْها

على حاملي الدّلاء الهائمين

غريبٌ أمر هذي المداخن

المهجورة على السّطوح

حين ننظر إليها بعيوننا التي طالما

سافرتْ

رفقة لقالق الطّفولة

حانةٌ

حانةٌ تُطِلّ على بركة صغيرة، قُرْبَهَا

شجرةٌ تُحسن حمايةَ الطِّفل

الذي يصِلُ راكضاً من جهة البحر

يُطارده خُفًّا أبيه الغاضب

حانةٌ، يحدثُ أن أُطِلَّ من نافذتها على الليل

وهو يَمضي نحو الشّاطئ

مُرَدّداً أغنية بحّار

حانةٌ، يحدثُ أن أُطِلَّ من نافذتها

والظّلام يهبط

فأرى العصفور الذي كان يلعب

الذي كان يَجذبُ تلّةً من ذيلها

يُسْدِلُ ستائرَ الحقل

ويأمر الأعشاب بالنّوم

إنّها حانة القرصان، البعيدة

عن صخب المدينة

حيث، هانِئاً

يشيخُ النّبيذ

في مسامّي!

خِرفان الليل

جوّ سبتمبر الجميل يتشرّبُ الضوضاء القادمة من وسط المدينة. من نافذة بيتي، تبدو لي سفينةٌ تُبْحِر. إنّ لها شَكْلَ قوقعةٍ كبيرة. والهضبة القريبة، كَأَنّها أضحتْ شفّافة، فهي لا تحجبُ عنّي البحر. لقد اقتعدَ سطحَها العَالي الشّخصُ طويلُ الشَّعر نفسُه، وهاهو يقوم، كالمعتاد، بحركات توحي بأنّه يَقطف غيماتٍ ثمّ يعصُرها وبعدها يُطلقُها لتعود إلى الفضاء مثلما حمائم. حين التقيتُه ذاتَ ليلة، قبل سنة، فوق صخرة تشرف على البحر، قال لي إنّه يُسمّي نفسه سيزيف الجديد. كانت الأمواج لحظتَها خرفاناً مُلْتهبة المزاج، ما تنفكّ تهرب، ثمّ تعود، ثمّ تهرب من جديد. وكان كلٌّ منّا قد جاء إلى ذلك المكان، بقنّينة نبيذه وكأسِه، ليَشْرَبَ ويُشْهِدَ البحْرَ على انْتِشائه... وتحادثْنَا، فاكتشفْنا أنّنا،

في بـدايات الشّـباب، درسْـنا في نفسِ الثّانويّـة، خلال نفْسِ السّـنواتِ، وفي وقت ما، أحببنا نفس الفتاة.

كُلُّ تلك المُصادفات، والخِرفان المائيّة لا تَـني تـركُض وتـركُض... ثُغاؤها يتشرَّبُه جوُّ سبتمبر الجميل.

كنتُ لِلتَّوِّ قدْ وَصَلْت

كُنْتُ للتّوّ قَدْ وَصَلْتُ إلى تلك المدينة

التي لم أَزُرْها منذ صيف قديم

وكان جرَّاحونَ على شاطِئِها

يُخْرِجون من جُمْجمةِ غريقٍ جِيءَ بِه

من عُمْق اليَمّ

طحالبَ وقواقع

وبِمُجرَّد ما يُعيدونَها إلى البحر

يَقِفُ ذلك الغريق ويُكْمل إغلاقَ جُمجمته

بيديه

ويُحَيِّي الحُضُورَ بإشارة

بَعْدَها يأتي مُمَرِّضُونَ بغريقٍ جديد

ويُمَدِّدُونه على سرير الجراحة

فيما يكونُ سابقُهُ قد رَكِبَ

درَّاجته النَّاريَّة ومَضَى نحو بيته

حَيّاً ولكنْ بِلا لَحْمٍ يَكْسُو عِظامَه،

بلا لحْمٍ ولكنْ بِرُوح مَرِحة...

أصدقاؤه سيحتفلونَ بعودته هذا المساء

وسيلاحظون أنّ لَهُ في الرّقصِ

هَزّةَ كتفٍ

لا تُضَاهَى

وأنتِ بلباس البحر

ذات صباحٍ، وأنا بعدُ طالبٌ وفي الثّامنة عشرة

كنتُ في مقهى على الشاطئ

وكان ثمّة سبّاحون يدخلون إلى المياه متقافزين

شاعِرِينَ، ولا شكّ، بالرّعشة

وكنتُ أقرأ أخباراً في صحيفة

لكنْ سرعانَ ما استأثَرَتْ بانتباهي تَنُّورةٌ قادمة

فارغةً من صاحبتها

مُرْتَفِعةً عن الأرض وأطرافُها تهتزّ إذْ

يعبثُ بها النّسيم

وبَدَتْ لي

أثناءَ قُدُومِها مِنْ خلفِ تلّةٍ صغيرة

على الشّاطئ

أليفةً لعينيّ

مشدوهاً نهضتُ

ومضيتُ باتّجاه التّلة:

خلفَها، كانتِ الابتسامةُ العريضة

على وجهكِ وأنت بلباسِ

البحرِ، سَلْوى

لَ م نكن، قبل تلك اللحظة، قد تبادلْنا

غير نظراتٍ في ردهة الكلّية

وأخرياتٍ بباب صيدليّة

وقلتِ : تنّورتي

أرسلتُها لتأتي بك أيُّها الخجول

وها هي الآن عائدةٌ نَحْوي

غريبٌ في تلك المدينة

كنتُ غريباً في تلك المدينة ولِذا

آثرتُ أنْ أَحْلِقَ شَعْرِي في المَحَلّ المُسَمَّى

"عند حَلَّاق الغُرباء"

أصبحتُ وصاحبَه، بمرور الأيّام، صديقَيْن

ومرّة أغلقَ مَحلَّه واختفى أيّاماً

وحين عاد، أهداني قنِّينةَ فودكا

قال إنّ ه جلبها لي من بلدة ما في روسيا

فقد سافر إليها خلال الأسبوع الأخير لأنَّ لَه

خالةً هناك

نَفَقَتْ لها نَعْجَات

ومضى لِيُعزِّيَها

ذلك كان من جميل المصادفات

ففي تلك الأيّامَ بالضّبط كنتُ قَدْ

بدأتُ أدرسُ الرُّوسِيّة

على يَدِ امرأة جميلة

امرأةٍ كانَ بمقدورها ألَّا تستقبل

الموسيقى بأذنيها إذا هي شاءتْ

وأن تَشُمّها شمّاً

كنتُ أمضي إلى مَحَلِّ صديقي من حين لآخر

وكان يحدُثُ أن يتسلَّلَ أمواتٌ

بين زبائنِهِ ليقُصَّ لهمْ شَعْرَهُمْ

وقد أخبرني بأنّ واحِداً منهم

كان في حياته عُضواً

في الأكاديمية الفرنسية

لَمْ يحدُثْ أن تحدَّث صديقي

بأمرهمْ لأَحَدٍ غيري

ولا حَدَث أنْ تكلّمتُ عنهمْ إلَّا مع

نفسي

ولا ندري كيف نُمِيَ الخبرُ إلى البوليس

الذين عمدوا إلى دَسّ مُخبرين حول المقابر!

قبل أيّام كنّا، ثلاثتُنا، نتعشّى معاً

وبدا لي أَنَّ الحلَّاقَ صديقي

لو تزوّ ج من الأستاذة الجميلة

لَشكّلا أُسرةً سعيدة

ولأنجبا ولا شكّ أطفالاً

عجيبي الذّكاء

أمّا أنا فرَبُّ بيتٍ منذ سنين طوال

أستيقظُ باكراً في كلّ يومٍ وأمضي إلى الغابة

لأخطبَ في العصافير

وفي المساء، يحدث أن أَقضي أوقاتاً

في "حانة القرصان"

أو أمضي إلى السّاحل

لأتفقّد المغارات!

بسبب أوراق ميّتة

كان ثمّة خفْقُ أَجنحة

يتناهى إليّ من حديقة تتمدّد فيها فتاة

على مصطبة

الفتاة كانت رفيقةً لي في قسم ما

بالابتدائيّ

وفي تلك الأيّام البعيدة، كانت قد أُصِيبت

بالنّحول بسبب أوراق ميّتة

سقطت من شجرة

على ركبتيها

ثُمّ التقيتُها بعد ذلك بزمن

في محطّة قِطار

وكانتْ تدخّن كثيرا

قالت يومَها إنّها في طور التّحوّل

إلى سيجارة ضخمة

سيجارة ذات فم وعينين

ذات أذنين ونهدين

وهي الآن على المصطبة

تبدو مديدةً وملفوفةً بالبياض

كأنّها فعلاً سيجارة ضخمة

فيما يتصاعد من ذاكرتها

دخان أبيض ورماديّ

مع هذا، فلا داعي لأن نقلق

إنّها لا تزال من لحم ودم

على شفتيها ابتسامة

وتنظر إلى عصفور

فوق سلك كهربائيّ بعيد

أسلاف

في هذا البيت، في زمن قديم، تطايَرَ شَرَارٌ كثير

من جَسَد جدّ، بعد أن رَطمَ رأسه

بسقف قُبّعته

سكّانُ هذا البيت، من أجدادٍ أكثر قِدَماً

كانُوا شديدِي التّديّن

واتّخذوا إِلَهاً البُركانَ المقدَّسَ الذي

أصبح في مكانه الآن

قُرْنٌ كبير

أنا، خلال هذه الليلة، في هَذا البيْتِ نفسِه

أستمرُّ في كتابةِ تاريخ السُّلالة

فَيَدْلِفُ إلى غرفتي ناطقونَ باسْمِها من كلّ

العُصور

يتجمّعون في جانب من الغرفة

فتميلُ تحت ثِقَلهمْ

يركضون إلى الجانب الآخر، فيشعرون

أنّه يَمِيدُ بهم

وهكذا، أنا أُؤَرِّخ لهمْ

وَهُمْ يُمَرْجِحُونَنِي

لا يُخِيفُنِي إِلَّا شيْءٌ واحِد

زُرْقَةُ هذا النَّجْم - وقد كان

صديقَ طفولتي

ولطالَما حرص على إضاءَة طريقي

أثْناءَ عودتي ليلاً من السّينما -

هِيَ بالتّأكيدِ مَرَضِيَّة

لقد سَاءَتْ حالتُه كثيرا

هذا ما أكَّده لي

طبيبٌ مُخْتَصّ في الجهاز التنفُّسِيّ

وعالِمُ فَلَك

وما هَمَسَتْ لي بِه امرأةٌ في بُسْتان

تبيّنَ لاحقاً للشُّرطة السّرّية أنَّها

إمّا زرقاءُ اليمَامَة شخصيّاً

أو من سُلالتِها...

الشّرْطة السِّرِّية!

يحدثُ أن يَحْدِجَنِي أفرادٌ منها

فَأَحْدِجُهُمْ

أنا لا آبهُ بهمْ

وفي هذه اللحْظَةِ، لا يُخِيفُنِي إِلَّا شيْءٌ واحِد:

أنْ يَهْوِيَ النَّجْم صديقي منذ الطُّفُولة

واهنَ القوَى على هذه الأرضِ الحزينة

فيما أبقى أنا واقفاً هُنا

غَيْر قادرٍ على أنْ أفْعَلَ مِنْ أجله

شيئاً

كوميديا سوداء

هل تعتقدُ حَقّاً يا صديقي مِيرُو

أنّكَ سبقَ أن كُنتَ

بطَّةً بَرِّية في حيَاةٍ سَابِقَة؟

هل فِعْلا تُنَقِّبُ في ذاكرتكَ بَلْ حتّى

في مسامِّك لِتَجِدَ جواباً

عنْ تساؤُلك هذا؟

ثُمَّ بالله عَليك

مِنْ أين جاءتْك هذه الفكرةُ أَصْلاً؟

مِنْ كونكَ، حسبَما تقول، أصبحتَ تَرى

بِرَكاً كثيرة في أحلامك

وتسمعُ صوتَ البطّ فينتابُك حنِينٌ غريب

وتُثيرُ انتباهَكَ أيُّ ريشةٍ طائرة

مهما كانتْ واهية؟

لكنّك، بهذه الطّريقة، تُثيرُ القلق

في نفسي يا صديقي

وتجعلُنِي دائمَ الشُّرود

وتَمْنَعُ النّومَ عن جفوني

لأنّي أصبحتُ، عند كلِّ غَفْوة،

أرى بنادقَ في الحُلم

ودخَاناً يتصاعدُ أمامي

وكلّما بدا لي موقدٌ

إلّا واستثارَ اهتمامي

وكلّما لمحتُ جَمْرةً

أو كومةَ أخشابٍ تَشْتَعِل

تسمّرتْ عليها عيناي...

فهلْ يا تُرى كنتُ في حياة آنفة

قَنّاصاً

وحدثَ أنْ قنصتُكَ وأنتَ بَطَّة

وَحَدَثَ أنْ طَهَوْتُ منك؟..

آه! إنّكَ تَجعلُنِي أتعذّب

آه! إنّي سأَبْكِي...

يَغذُّ السّير في المرآة

يا لَتوتّر حاملِ المظلّة الشّاحبِ القادم بسرعة.

إنّه يحثُّ الخطى في اتِّجاهِ رجلٍ طويلٍ

ومُحتقِنِ الوجنتين،

واقفٍ أمام مرآةٍ، شِبه نائم، ويُدخّن.

حاملُ المظلّة يزيدُ من سُرعته ويتذكَّر المرأة

التي كانتْ عشيقةَ محتقِنِ الوجنتين:

إنَّها مَاشَا الجميلة التي غرقت

في ذلك البلد البعيد

وهي الآن قابعة ولا شكّ

في قعر نهر الفولغا .

ويدندن الرّجل الطّويل المحتقن الوجنتين

بقصيدة كان قد كتبها

عن موت عشيقته الرّوسيّة.

إنّه واقف أمام مرآة الحمّام

في بيته بكازبلانكا

يُدخّن ويَحلق ذقنه، ويرنو

إلى حامل المظلَّة الذي يغذُّ السّير

نحوه في المرآة

والذي لم يكن إلا هو نفسه، قادماً

نحو نفسِه

من شتاءٍ روسِيٍّ قديم!

حُلَفاء

لقدْ أُعلِنتْ علينا حربٌ شعواء

ولسنا الطّرف القويّ فيها!

في شوارع مدينتنا رُئِيَتْ تلميذات صغيرات

يتظاهرن بالمرح وصرخاتُهنّ

تحت رموشهنّ

والمغنّي الذي كان قد عوَّدَنا

على مَرَحه ودَنْدناته

انكمش في زاوية بزقاق مهجور

حيثُ بدأ يتتبّع هَلْوساتِ عِظامِه

كما لو كانت مشاهد

في شريط سينمائي .

لكنْ جميلٌ أنْ يكونَ قد جاء لنجدتنا

هذا الفيلق من العميان

الذين يدخّنون وينفثون الدّخان

من عيونهم

وهذه البِركة التي يُقال إنّها

سليلةُ جبلِ جليدٍ مَهيب

جميل أن تكون قد وصلتْ كلُّ هذي الأجراس

هذي السّمكة التي هي كُبرى

وزيرات البحر

هذي العجوز التي تظهر عادةً

في نهاية كلّ خريف

لتكنسَ الغابات

وهؤلاء الأطفال الشّجعان

الذين أنقذوا عصافير في بِيد...

فلَكَم نحن محظوظون

بحلفاء

من هذا القبيل!

في هذه اللحظة بالضّبط

في هذه اللحظة بالضّبط، حسبتُ أنّي متّ

لكنّ روحي، التي، منذ دقائق،

غادرتْ، حقّاً، جسدي

لَمْ تلتحقْ بالسّماء، بل إنّها صعدتْ إلى قِمّة نخلة

أراها من نافذتي !

انْزِلي، أيّتها الرّوح القلقة،

انزِلي فوراً

وَعُودي إلى حيثُ كنتِ

هكذا تحدّثتُ إليها، ثمّ أَضَفْت:

هيّا انْزِلي،

كفاكِ عبثاً!

له ذاكرةٌ حَيّة

كان يَمْضي عبر شارع العظام

تحت مطرٍ من ابْتسامات الأشباح

يُخفي جيّداً صرختَه السّرّية

لا يحبّ الحياة كثيراً

لكنّه لا يكرهها

لقد وُلِد ذات يوم اشتدّ فيه الحرُّ

على المجانين

وهو يعيش الآن قرب بركةٍ

يسمعها، أحياناً، تحكي القصص

لجراداتٍ من حَوْلِها

له ذاكرة حيّة: رأى مرّة سيجارةً في

فَمِ عابرٍ بقربه

فتذكّر أنّها السّيجارة نفسُها التي

سبق أن رآها في حلم

يتذكّر أيضاً أنّ جدّته، قبل وفاتها

أوصتهُ خيراً بعلبة النّشوق

التي تعاني من الخَرف

وبالرّياح الفقيرة

والدّجاجاتِ الثّلاث

النّاسكات

يتمشّى على رمل قديم

دُونَ رغبةٍ منه

تَحوّ ل، خلال الليل، إلى طائر من نار

وجابَ العديد من الحدائق والحقول

وحدث أن سبّب حريقاً في حقل

تناول به كرزاً

وَخَزه ضميره بِشِدّة في أثناء الليل

لكنّه في الصّباح، جاء إلى مكتبه

في هيئته المعهودة، باستثناء

أصابعه التي كانتْ عُقَلُها

قد أصْبَحتْ جَمَرات!

إنّه يتمشّى، الآن، على رملٍ

في ذاكرته

مفكِّراً بالظُّلم الذي حاق به

بعد أن انكشفَ أمره

وحكموا عليه بأن يُسْجَن

في قفصه الصّدري

سِنينَ عددا

أتهيّأ للإبحار

مشيتُ تحتَ صفير غيمة

كانتْ تتلهّى

بتتبّع شريط ذكرياتي

والقرويّة التي كانتْ عشيقتي

ذاتَ يوم في بيدرٍ ما

ظهرتْ بدورها خلف نافذة بعيدة

باسِمةً ومحاطةً بالعصافير

باسِمةً وتنقُر

على طبلة أُذن الريح الرّصينة

يا عشيقتي يا عشيقتي

كوني لي خيمة

على جبل الكهرباء

بهذا رفعتُ عقيرتي وأنا، في غُرفةِ

نَومي، أتهيّأ للإبحار

في كأسٍ غريبة

وأصبحتُ سيِّدَ السّاهرين

كنتُ صيّادَ سَمك

وكنتُ غنيّاً أو فَلْنَقُلْ

إنّه لم يكنْ ينقصُنِي شَيْء

ثُمَّ ساءتْ أحوالي، بعد أن عشقتُ

حياةَ الليل

بغوانيها بِنبيذِها بِحُرُوبها

وأصبَحْتُ

سيّدَ السّاهرين

وحسِبُوني جُنِنتُ حينَ بدأتُ أُرَى

في منتصفاتِ الليالي

ومعي شِبَاكي التي صِرْتُ أُلْقيها

إلى أعلى، لَعَلّي أصطادُ

ابتساماتِ نُجومٍ

أوْ همهماتِ غيومِ الليل

أوْ حتّى حصاناً مُجَنّحاً لطيفاً

يَدْملني على ظهره

ويَمْضي بي في رحلاتٍ عجيبة

أَقصّ وقائعها، في يوم ما،

على أحفادي القادمين!

قصائد مختارة

ممّا لمْ يُنْشَر بعدُ في مجموعة

على قِمّة جبل

صعدتُ إلى قمّة جبل

ووجدتُني أمام كوخ صغير مُتداع

ذاك كان مسكنَ البرد

وهو يأوي إليه متى يشاء

منذ ما لا عدّ له من القرون

في مرّة قادمة

سأرسمُ لوحة وأعلّقها على بابه

البردُ على عِلّاته يستحقّ منّي

هديّة صغيرة

وها أنا الآن في هذا العلوّ

غير متوجّس من شيء

رغم أنّ أسرابَ عصافير

بدأتْ تُبرق

وجِلدَ هذه الساعة

دبّ فيه التّنمل

رغم أنّ الشّحوب طوّق الأشجار

ونمالاً حمراء كثيرة

امتقع لونُها

وحين شعرتُ بوحشة حقيقيّة

مرّ هيكل عظميّ وحيّاني

أتذكّر صورَته جيداً

أيّامَ كان مكسوّاً باللحم

فقد لعبنا معاً في نفس فريق

كُرة القدم

قال لي لا تُضعْ وقتَك هنا

ليس هنالك فُرجة من أيّ نوع

قالها ورَكل الفراغ بقوّة

وبالفعل فقد كان في الأيّام الخوالي

هدّافاً شهيراً

يركل بقوّة بالقدمين

كما يُحسن ضرب الكرة برأسه الذي

كان يختزن أيضاً عدداً

من أغاني بوب مارلي

قَبْل الإفطار

شفرةُ الحلاقة تحلم، قرب لحيتي

بقطراتٍ من دمي

نملةٌ تسقط من مكان مجهول

على سطح رغوة معجون الحلاقة

هي في ورطة عظيمة لكنّها تحلم

أنّ لها ساعدين قويّين وأنّها

تجذّف وهي على متن قارب

وإذ أشعر أنّها تودّ لو تَنوح

أُسارع إلى إنقاذها

لكنّي حين أزمع البدء في الحلاقة

أسمع زمجرات غضب:

إنّهن البيضات الثّلاث، منفعلات،

فقد تركتهنّ، دون أن أنتبه

في زاوية معرّضة

لتيار الهواء.

يُسَمّد الحقل...

آثرَ في هذه السّنة أن

يُسَمّد حقلَه بالكلام

ولأنّ له لساناً أصبح لا يكفّ عن الثّرثرة

منذ أن فتنتْه امرأة في السوق الأسبوعيّ

فالحقل سيُخصِب ولا شكّ

والغلّة ستكون عظيمة

حقّاً، هو لم يكن قد رأى

من تلك المرأة سوى صفّي أسنانها

وبينهما

قطعة بطيخ مديدة

لكنْ سوف يُفعِم الفرح قلبَه بعد الحصاد

وسيكون هنالك عتّالون كُثر

وصَفْقُ أبواب

وسوف ترتفع عقائر بالغناء

وتتنحنح قناديل

وتتساقط ثلوج

على رؤوس نسوة حزينات

كنّ قد أغدقن حبّهن الأموميّ

على قطع سكّر

كانتْ لها حياة

لكنّها لمْ تحترسْ

وذابتْ في كؤوس

في عربة

أُسافر في عربةٍ عجلاتُها بيضاء

تسلك بنا طريقَ الشّاطئ، وجارتي إذ تغفو

تبدأ التّجاعيد في التّكاثر على وجهها.

حجمُها في تناقص.

أهي حالة شيخوخة مباغتة؟

تتصاعد موسيقى قرب النّافذة التي

أطِلّ منها على البحر.

ثْرلَلّا ثْرلَلّا ثْرلَلّا ثْرلَلّا ثْرلَلّا ثْرلَلّا

موسيقى فلامنكو: آه! كمْ كنتُ معجباً

بِلَالُو تيخادا

لكنّي نسيتُها زمناً ولم أتذكّرْها

إلّا في هذه اللحظة.

جارتي اسمُها علياء وهي طبيبة أطفال.

ذلك أنّنا تعارفنا قليلاً

قبل أن تنام.

قالتْ إنها تحبّ الأغاني الخفيفة

وأن ترشَّ ظلّها في الصّيف

بماء بارد

وأن تُطلّ على المطر

من نافذة في قطار.

كيف لي...

كيف لي أن أنهي قصّة الأميرة ذات الهمّة وولدها عبد الوهاب في ليلتي هاته التي يُضيئها فحسب بُؤبؤا عصفور؟ لن أبحث عن جواب ما دامت هذه الرّيح البطيئة لم تنته من مسح العرق عن حصاني المطاطي المركون قرب النّافذة. حقّاً، كانت لي ريشات هنديٍّ أحمر حول رأسي، لكنّها سقطتْ منّي ذاتَ صباحٍ في حقل جدّي. حدث هذا منذ وقت. وكلّما فكّرتُ في العودة إلى ذلك الحقل لأجلب منه ريشاتي، يتعالى الصّفير في أذنيّ. جدّي كان معروفاً بشدّة صفيره. بطلاً في ذلك الميدان كان. تسمع ناقتُه صفيرَه من بعيد فتُقْبِلُ نحوه مسرعة راضية.

والعجيب أنّي، في العديد من المرّات، ما إن كنتُ أغذّ السّير في اتّجاه ذلك الحقل حتّى أعرّج على أشجار أحسبها حزينةً فأودّ لو أواسيها ثمّ أمرّ بجنبِ كهف فيبدو لي متحفاً للصّافرات، وكنتُ بالفعل أرى فيه صافرات من أقدم العصور وأخرى من أزمنة قريبة أو حتى من عصرنا!

ومرّة، كنت أمضي في اتّجاهِ الحقل الذي سقطتْ فيه ريشاتي فرأيتُ ما حسبته قبّةً من حرير نازلةً أطرافُها المُلوّنة إلى مستوى أدنى من مستوى رأسي، فدلفتُ تحت تلك القبة لكنّي بعد لحظات اكتشفت أنّها في الحقيقة تنّورة أسطوانية يتبدّى بداخلها ردفان مكوّران جميلان

وفخــذان صــقيلتان تســرّان نــاظريّ أتلبث قليلاً لأســتريح بين تينــك السّاقين. (يجب الإقرار بأنّي كنت طفلا صغير حجم الجسد وقتها). وإذ تدفّئُني سخونة المكان بما يكفي، أخرج من تحت التنورة وأتطلّع إلى فوق، فأرى وجهاً أنثويّاً جميلاً يبتسم لي.

ومرّة كنتُ سائراً صوب حقل جدّي لأستعيد ريشاتي لكنْ جاءتني أحلامٌ من أعشاش وشرعتْ في الطّبطبة على كتفيّ. ومرّة التقيتُ أبي وأنا في طريقي إلى ذلك الحقل فقال لي: تُضيع وقتك في البحث عن ريشات. لو أنّك في غرفتك تُراجع دروسك، أو على الأقل تلعب مع أقرانك تحت الأشجار. هكذا عدت إلى البيت وفتحت قصة الأميرة ذات الهمّة وولدها عبد الوهاب على الصفحة التي كنتُ متوقّفاً عندها!

المحتويات

- قصائد مختارة من "على دَرج المياه العميقة".

- قصائد مختارة من "محفوفاً بأرخبيلات..."

- قصائد مختارة من "راية الهواء"

- قصائد مختارة من "فراشة من هيدروجين"

- قصائد مختارة من "رجل يبتسم للعصافير"

- قصائد مختارة من " عيون طالما سافرتْ"

- قصائد مِمّا لم يُنشَر بعد في مجموعة

وقد تمّ الانتهاء من جَمع القصائد المُدْرَجة في هذه الأنطولوجيا

بمدينة سلا (بالمغرب) يوم 16-8-2020

أنطولوجيا شخصيّة - مختارات من قصائد مبارك وساط

على محفَّة الهذيان

تتمدَّد شقيقةُ الزَّبد

مذْ صُعِقتُ ببروق جسدها

مذ عشقتُ حدائقَها المعلَّقة

بضفائرها

بدأ المطر يُفاجئني كلَّما غفوت

لذا فأحلامي دَوْماً

حافلةٌ بأقواسِ قُزَح

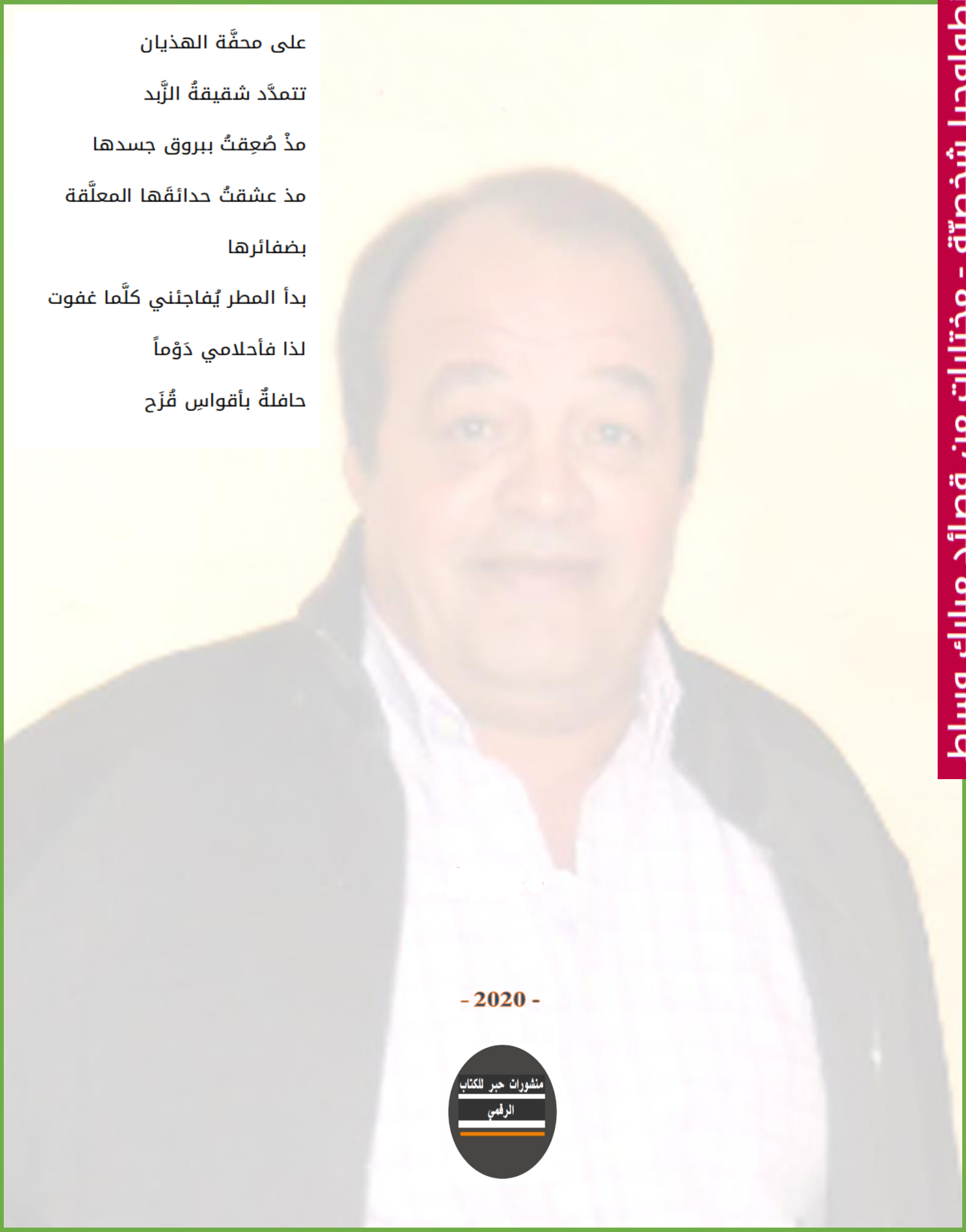

- 2020 -

منشورات حبر للكتاب الرقمي